دموع الرجل النحيف

كانت رؤية الرجل تثير الرعب فى قلوبنا .. وكان منظره يبعث فى أبداننا قشعريرة ويملأ نفوسنا هلعا .

وكان أول ما أذكره عنه هو تلك الصورة التى طبعت له فى رأسى منذ عشرات السنين ونحن ما زلنا أطفالا نلهو ونعبث .. ومازلت أذكر حتى الآن تلك الحجرة المترامية الأطراف فى منزلنا العتيق وقد أويت وأخوى الى مضاجعنا ومعنا الخادمة التى كانت تقوم بمهمة تنويمنا .. ولم يكن هناك أثقل علينا فى ذلك الوقت من أن نأوى الى مضاجعنا .. فقد كنا نكره النوم لأنه يحرمنا من لذة اللعب واللهو وكنا نتمنى لو جعل الله الليل والنهار معاشا ، حتى نستطيع أن نواصل اللعب ليل نهار .

وكانت الخادمة تضيق ذرعا بنا .. وباصرارنا على عدم النوم .. ففكرت فى أن تخيفنا حتى نضطر الى الانكماش فى الفراش فيغلبنا النوم ونروح فى سبات عميق .. وبدأت عملية التخويف فأخبرتنا أننا اذا استمررنا على هذه العفرتة والشقاوة وأبينا أن ننام ، فستضطر الى أن

تشكونا الى الشيخ (شيبون شيبر) وهو كفيل بأن يأكل من كل منا ذراعه أو ساقه .

وقفزنا من الفراش وأمسكنا بتلابيب الخادمة وسألناها عمن يكون هذا الشيخ الشيبون وما قصته وما شكله ، وبدأت الخادمة تصفه لنا فأنبأتنا أنه جني يبدو في صورة رجل ضخم الجثة عريض المنكبين .. ذو وجه قبيح مخيف ونظرات شريرة قاسية يتطاير منها شرر ينير له الطريق عندما يسير في الليل وأن أسنانه حادة كالسكاكين وأظافره قاطعة مدببة كالمخالب وأن أقدامه ليست كأقدام الإنسان بل هي أشبه بحوافر الخيل .. وأنه مولع بأكل الأطفال وخاصة الأشقياء منهم والذين يرفضون النوم .

وتشككنا أول الأمر في حديث الخادمة .. ولكنها أرتنا أثر جرح في ساقها وأكدت لنا أنه عضة من الشيخ (شيبون) عندما رفضت النوم ذات ليلة وهي طفلة صغيرة .. فبدأت عقولنا الصغيرة تؤمن أن الأمر ليس به خدعة .. وزادنا يقينا من صحة كلامها تلك الأصوات الصادرة عن حوافر الخيل التي تجر عربات الحنطور والتي تقرع أرض الطريق قرعات منتظمة .. فقد أكدت لنا الخادمة أنها وقع أقدام الشيخ (شيبون) وهو يبحث عن الأطفال الأشقياء .

وهكذا رسمت الخادمة في أذهاننا صورة مروعة لذلك الشخص المخيف الذي ابتكره ذهنها وأوحى به خيالها .. حتى تستطيع ارهابنا وقت الحاجة .. ولتسوسنا به اذا استعصى عليها أمرنا .

والى هنا ليس في الأمر غرابة أو عجب ، فما من طفل الا وله بعبع يخيفونه به حتى يرتدع ويزدجر ، وما أظن الشيخ شيبون يختلف في شيء عن (أبو رجل مسلوخة) أو (عفريت الليل ، بسبع رجلين) الى

آخر هذه الشخصيات الخيالية التي ابتكرت لإرهاب الأطفال .. ولكن العجيب حقا هو أن ينقلب شيبون فيصبح حقيقة لا وهما .. وأن نراه أمامنا جسدا متحركا .. لا طيفا ولا شبحا ، وانسانا من دم ولحم لا خرافة ابتكرتها رأس خادمة .

ففي ذات يوم وقد أخذنا نلهو بالكرة أمام المنزل قذف أحدنا بها فأصابت ظهر أحد المارة .. وعدوت لآخذها .. فاستدار الرجل الىّ بوجه غاضب ، وتسمرت قدماى فى الأرض ولم أستطع أن أكتم صرخة فزع انطلقت من صدرى .. فلقد كان الرجل هو (الشيخ شيبون شيبر) . نعم أقسم أنه هو !! فهذا الجسد الطويل الضخم كأنه المارد وهذا الوجه القبيح الدميم ، وتلك النظرات القاسية الشريرة الصارمة .. وهذا الشرر الذى يكاد يتطاير من عينيه .. والأظافر التى تبدو كأنها مخالب طير كاسر ، وتلك الملابس العجيبة الفضفاضة . كل هذا لايكون الا له .. نعم انه هو بعينه بلا أدنى ريب ولاشك .

ووجدت الرجل يمسك بالكرة فينشب بها أظافره ، ويمزقها اربا اربا ، ثم يقذف بها فى وجهى ويمضى فى سبيله ووجدتنى أقف فى مكانى مذهولا مشدوها .. وقد أخذت عيناى تتبعان الرجل .. وتبحثان عن قدميه .. حتى يتأكدان أنهما حوافر خيل .. ولكن الرجل اختفى .. دون أن أستطيع تمييز قدميه فقد أخفتهما ملابسه الفضفاضة الجرارة .. وان كان وقعهما على أرض الطريق يشبه الى حد كبير تلك الطرقات التى كنا نسمعها فى بهمة الليل .

وعدت أدراجى أحمل أشلاء الكرة التى فتك بها الرجل وأنا أرتجف من الفزع فاذا ببقية الأطفال قد ولوا الى دورهم مذعورين .

وفى الليل أنبأت الخادمة هامسا : انني رأيت شيبون ، فبدرت منها ضحكة عالية ولكنها سرعان ما كست وجهها ملامح الجد وأنبأتنى هامسة :

– ألم أحذرك منه ؟ اياك بعد ذلك والعفرتة .. لقد اكتفى هذه المرة بتمزيق الكرة .. ولكن لا أظنه سيكتفى فى المرة القادمة الا بتمزيق جلدك وسحق عظامك .

وشجع هذا الحادث على أن تمعن الخادمة فى اخافتنا بالشيخ شيبون ما دام قد دخل فى روعنا أنه حقيقة لا خرافة .. حتى حدث ذات يوم أن رأت بعينها ذلك الرجل الذى رأيته .. ومن ذلك الحين وهى لاتجرؤ على ذكر اسمه قط .. فلقد صدمتها رؤيته صدمة كادت تذيب قلبها .

كان ذلك قبيل الغسق وقد خرجت والفتاة لقضاء حاجة من السوق .. ولم تكد نبتعد عن الدار حتى وقع بصرنا على منظر بعث الرعب فى نفوسنا .. فقد سمعنا فى البدء صراخ طفل .. فلما اقتربنا من مكان الصراخ تسمرت قدماى فى الأرض فقد أبصرت شبح عملاق تبينت فيه ذلك الرجل الذى مزق لنا الكرة والذى استطعت أن أجزم أنه هو نفسه الشيخ شيبون ذو الحوافر والمخالب .. وقد قبض باحدى يديه على عنق الطفل .. وبالأخرى على هراوة أخذ ينهال بها على جسده بقسوة ووحشية .

وأمسكت بالخادمة بكلتا يدى كما يتشبث الغريق بلوح من الخشب .. وخبأت وجهى فى ثيابها وصحت بصوت مبحوح مرتعد :

– شيبون !!

ويستطيع المرء أن يتخيل ما أصاب الفتاة من ذعر وفزع وهى ترى تلك الصورة التى ابتكرها ذهنها وحشدت فيها كل ما طاف برأسها من أصناف مرعبة مخيفة .. قد تجسدت وصارت كائنا حيا هو ذلك المخلوق المرعب الذى لايفصله عنها الا خطوات معدودات .

وأسلمت الفتاة ساقيها للريح وقد أمسكت بى من يدى .. وأخذنا نعدو كمن به مس من شيطان رجيم .. وقد كاد يقتلنا الرعب .. ومن ذلك اليوم وذكر الرجل لايأتى على لسان الفتاة .. فقد كان ذكره يخيفها أكثر مما يخيفنا .

وذاع أمر الرجل وانتشر صيته .. وكأن غريبا قد نزح الى الناحية وقطن احدى الدور القديمة المتواضعة وأنشأ به حانوتا لبيع وشراء الأشياء القديمة ، وعرف بين أهل الناحية باسم (الشيخ شيبون شيبر) رغم أن اسمه الحقيقى لايمت الى هذا الاسم بصلة ولا شبه .. وكان أبرز ما فى الرجل ذلك الذعر الذى يتركه فى نفس كل من يراه مهما كان عمره أو كانت شجاعته .. وكان كذلك شديد الكراهية للأطفال والقسوة عليهم حتى بدأ الناس يتهامسون أن الرجل يخطف الأطفال ليضعهم فى قبو يقع فى أسفل حانوته ثم يلجأ الى تعذيبهم حتى يموتوا من فرط الألم .

ومرّت السنون وشببنا عن طوق الطفولة ، وقد بقيت منها ذكريات بعيدة باهتة .. وتغير كل شىء فينا الا شيئا واحدا ظل كما هو .. ذلك هو بغضنا للشيخ شيبون وخوفنا منه .

فقد استمر الرجل غامضا كما هو .. ورغما عما فعلته به السنون من أحدوداب فى الظهر واضمحلال فى الجسد .. فقد ظل على ماهو

عليه من قسوة وصرامة ، واستمرت نظراته الى الناس مليئة بالبغض والكراهية .. ولم يكن لكبر سنه أى أثر فى تخفيف ذلك الذعر الذى كان يعترى كل من رآه ، والرعب الذى يملأ قلب كل من صادفه .

واستمرت السنون فى السير فاذا بى وقد أضحيت زوجا ، ثم أبا لطفل كأنه الدمية ، وأعاد التاريخ نفسه ، فاذا بابنى يخيفونه بالشيخ شيون عندما يستعصى عليهم تنويمه تماما كما فعلوا مع أبيه من قبل .. وسألنى الطفل ذات يوم عما اذا كنت رأيت الشيخ شيون ، وعما اذا كنت قد رأيت حوافره .. فأفهمته أنه آدمى مثلنا .. فلا حوافر له ولا مخالب .. فبدا الشك على وجه الطفل وأنبأنى أنه يريد أن يراه .

ولم يكن يخطر ببالى قط أن الظروف ستضطرنى الى الذهاب الى الرجل فى حانوته وأن يرافقنى طفلى الصغير المحبوب عند زيارتى لذلك الرجل المخيف ، ولكن الأقدار أحيانا تجبر الإنسان على أن يفعل مالم يكن يتصور فعله .. ففى ذات يوم خرجت مع طفلى أجول جولة فى الطرقات وأخذنا نسير الهوينا وأنا أجيبه على أسئلته التافهة التى لم يكف عنها لحظة واحدة منذ بدأنا السير .. ورأيتنى أقترب من حانوت الشيخ شيون ، ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أسأل الطفل ضاحكا :

– ألا تريد أن ترى الشيخ شيون ؟ هذا هو حانوته !

ورأيت بالطفل لهفة الى رؤيته ، فقد كان يريد أن يتأكد أنه كائن حقيقى .. وأنه مخيف كما يصفونه .. وأحسست بنفسى رغبة الى أن أجلس معه وأحادثه .. وأن أرى من قرب الرجل الذى استمرت ذكراه أو رؤيته حتى من بعيد تثير فى نفسى الذعر ما يقرب من خمسة وعشرين عاما .

ودخلت الحانوت ولقيت الرجل وجها لوجه فلم أستطع أن أمنع موجة من الذعر سرت فى جسدى .. وأحسست بالطفل يتشبث بثيابى ويخبىء رأسه فيها .

وطلبت الى الرجل أن يرينى بعضا من التحف القديمة .. فذهب ينقب ثم عاد الىّ ببعض من التماثيل والأوانى القديمة ، وأخذ يشرح لى قيمة كل منها .. وبدأ الخوف يذهب من نفسى رويدا رويدا .. وحل محله الاطمئنان .. وكان حديث الرجل طليا لطيفا .. فبدأت انساق معه فى الحديث حتى كدت أنسى أنه (الشيخ شيبون) .. ووجدت الفزع قد ذهب أيضا من نفس الطفل .

لقد رأيته يقترب من الرجل فى سكون .. ثم ينحنى ببطء ويمسك بثوبه الذى يكاد يمس الأرض فيرفعه مرة واحدة ويكشف عن قدمى الرجل وساقيه !

لقد كان الطفل يريد أن يتأكد هل هو ذو أقدام مثلنا أم أنه يسير على حوافر !

ورأيتنى أنا الآخر أثبت نظرى فى أقدامه حتى أتأكد مما يريد أن يتأكد منه الطفل .

وجدت أن قدمى الرجل طبعا لاتكاد تختلفان عن أقدامنا فى شىء .. فمددت يدى لأجذب الطفل ولأؤنبه على سوء فعلته .. ولكن الرجل المخيف لم يترك لى الفرصة كى أفعل ما أردت .. فقد رفع كفه الثقيلة التى تشبه مخالب الوحش ثم أهوى بها على وجه الطفل فى صفعة لم تبصر عيناى أشد منها وصاح بغضب :

- كان خيرا لك أن تحسن تربيته .

وأبصرت الدماء تسيل من أنف ابنى المحبوب .. ولا أظن أى انسان يستطيع أن يتصور وقع ذلك فى نفسى وأنا أبصره والدماء تسيل من أنفه بعد أن صفعه ذلك الوحش القذر الكريه .

لقد اندفعت من مكانى أريد أن أحطم رأس الرجل .. ولكنى وجدت الطفل قد وقف يعترض طريقى وأخذ يصيح بى :

– اتركه يا بابا فهو آدمى مثلنا .. وليس شيطانا أو جنيا .

ونظرت الى الرجل .. فاذا بالتجهم قد زال عنه .. وحلت محله علامات آلام تعتمل فى جوفه كأن أحشاءه تتمزق ، ورأيته ينهار على أحد المقاعد .. وأبصرت الدموع تنهمر من عينيه بشدة .

ومد الرجل يديه فاحتضن الطفل بحنان ورفق وأخرج منديلا من جيبه يجفف به الدماء التى سالت من أنفه وسمعته يهمس الىّ بصوت مبحوح :

– خمسة وعشرون عاما استطعت أن أكبت فيها ذلك الحنان الذى يصطخب فى صدرى .. وأن أسدل على وجهى ذلك القناع البغيض من القسوة ، لقد نجحت فى أن أقسو على الأطفال وأن أتجهم لهم ، ولولا ذلك لما استطعت أن أعيش لحظة .. ولقتلنى الحزن .. لقد كان كل طفل أراه يثير فى نفسى الذكرى الأليمة .. ويقطع نياط قلبى ويمزق أحشائى .. وكان يخيل لى أحيانا أن أتبنى كل طفل أراه .. أو أن أجمع أطفال العالم كلهم فأحتويهم فى صدرى .. فقد كنت أرى فى كل طفل ولدى الغائب المحبوب .. وكم كنت أعدو خلفهم فى الطرقات أظنه بينهم .. حتى ظننى الناس مجنونا .. وخشوا على أطفالهم منى وأصبح الأطفال يتجنبوننى ويفزعون منى ، وكم انتظرت أوبته حتى طال بى الانتظار وفاض بى اليأس فصممت على النسيان وعزمت على أن أقتل ذلك العطف الذى فى قلبى .. وأن أتجهم وأقسو .. ومرت علىّ

السنون ، فأصبحت كما ترى رجلا مخيف .. وظننت أنني سلوت ونسيت حتى دخلت الى حانوت بطفلك فتوجست منه خيفة .. فقد أحسست بعض الحنين .. لشدة الشبه بينه وبين طفلي المحبوب .. فصممت على أن أقسو عليه .

وثار غضبي عندما حاول أن يكشف عن ساقي ليرى «حوافري» فلطمته هذه اللطمة العنيفة التي أسالت الدم من أنفه .. ثم شعرت بطعنة في صميم قلبي عندما منعك من الاعتداء عليّ لأنني آدمي مثلكم وليس بشيطان كما تزعمون . آه لو كانت الأرواح تعود الى الأرض مرة أخرى لأقسمت أن هذا هو طفلي .. فهو أول من أراه يحنو عليّ بعد أن ذهب ولدي .. اني لأتخيله الآن وقد امتطى حماره ، ووضع عليه السلال الفارغة .. فقد كان ذلك هو خير ما يلهيه ويطربه .. يجول الطرقات مقلدا صوت الباعة حتى يذهب الى شاطىء النهر .. فيعبث بحماره في الماء ثم يعود الى الدار .

وفي ذات يوم خرج كعادته ، وقد علا غناؤه ورنت ضحكاته .. وكنت أشعر بتشاؤم يملأ قلبي .. فقد فقدت أمه المحبوبة في مثل ذلك اليوم منذ بضع سنين خلت .

وخيل اليّ أن الطفل تأخر .. ولكنني ظننت أن ذلك مرجعه ما بقلبي من تشاؤم .. فتماسكت بأطراف الصبر حتى حل الظلام .. وقفزت من مكاني وأخذت أعدو في الطريق كالمجانين ، وكان أول ما صادفني .. الحمار بلا شيء على ظهره سوى السلال الفارغة .

وخيل اليّ أن قلبي على وشك أن يقفز من مكانه .. وأمسكت برأس الحمار من فرط ما بي من جنة أسأله عن الطفل .. واستمر الحمار مطأطىء الرأس في صمت عميق .. ثم استدار بعد برهة وسار في طريقه وأنا أتبعه .. حتى انتهى بي الى شاطىء النهر .

ولم أجد هناك آدميا أستطيع أن أستدل منه على الطفل . ولجنوني .. أخذت أجرى هنا وهناك .. حتى أنهكني التعب ، والحمار واقف أمام بقعة على الشاطىء لايتحرك ، وأخيرا لم أستطع الا أن أجلس بجوار الحمار أرقب وأنتظر .

وجلست في مكاني وعيناى مثبتة بالماء .. أربعة أيام بلا طعام ولاشراب ، والحمار واقف بجوارى وعلى ظهره السلال الفارغة .. حتى حملنى الناس الى الدار كأنى جثة هامدة ..

وهنا رأيت طفلى يقفز من على ركبتى ثم يشير بأصبعه الى نهاية الطريق ويصيح قائلا :

– أنظر يا أبتاه .. هذا الطفل الذى امتطى حماره وامامه السلال الفارغة .

ومدّ كل منا رأسه فأبصرنا فى نهاية الطريق طفلا شديد الشبه بذلك الطفل الذى مازال الرجل ينتظر أوبته . وندت من الرجل صرخة خافتة وحاول القيام ولكنه لم يستطع كأنما أصيب بشلل فأشار الى أن أعدو وراء الطفل فأحضره .. وقفزت من مكانى وعدوت وراء الطفل لأحضره اليه حتى أخفف ما بنفسه من لوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى نهاية الطريق حتى كان الطفل قد اختفى .. وعدت أدراجى وبى حنق على طفلى لأنه حرّك فجيعة الرجل ونكأ جرحه باشارته الى ذلك الطفل ، وصممت أن أبذل كل ما فى وسعى حتى أرفه عن نفسه وأزيل ما بها من حزن ولوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى الحانوت ، وأحدث الرجل حتى وجدت أنه لم يعد فى حاجة الى ترفيه أو تسلية فقد كان أبعد من أن يصل اليه حديثى .. لقد فاضت روحه وذهب الى حيث يستطيع أن يلقى طفله المحبوب .